وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعـــــة تكريت
كلية العلوم الإسلامية
قسم أصول الدين

المرحلة : الدكتوراه
المادة : الفكر الإسلامي
محاضرة : مراحل تطور الفكر الإسلامي .

مراحل تطور الفكر الإسلامي .

محاضرة للأستاذ الدكتور : محمد هادي شهاب

المرحلة الأولى : مرحلة النشأة .

حيث بدأ الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عنهم يستنبطون آراءهم من الوحي الشريف ، علماً أنها لم تكن مرحلة فكر بالمعنى الكامل ، لأن الوحي المبارك كان غنياً عن الآراء البشرية ، ومع ذلك يمكننا أن نعدها مرحلة جمع وإعداد للعلوم الشرعية من قبل الصحابة ، ليتمكنوا فيما بعد من طرح آرائهم بعد مرحلة الوحي الإلهي ، أي بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم الى بارئه جل جلاله ، فقد كانت أسئلة سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، واستشاراته لهم في الأمور الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية بمثابة اختبار صريح ، يُعلم من خلاله استعدادهم لحل المشاكل التي ستطرأ عليهم بعد عهد النبوة .

ففي مجال القضاء : أرسل حضرة النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا معاذَ ابن جبل الى اليمن ، وقال له : (أَرَأَيْتَ إِنْ عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ كَيْفَ تَقْضِي؟ قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ الله، قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ الله, قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ الله صَلى الله عَليهِ وسَلم، قَالَ: فَإِنْ لَمْ

يَكُنْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ الله, قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلَا آلُو, قَالَ: فَضَرَبَ صَدْرَهُ ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ الله لِمَا يُرْضِي رَسُولَ الله)([1])

ولنا مع سيدنا عمر رضي الله عنه موقف آخر في موافقة القرآن الكريم لرأيه وتفكيره حيث روى البخاري عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ عُمَرُ وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلاَثٍ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ لَوِ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَنَزَلَتْ ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ ﴾ وَآيَةُ الْحِجَابِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ ، فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُنَّ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ.([2])

أما في الموقف العسكري فقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم ، مشاورات حكيمة مع أصحابه الكرام ، ليؤسس لمبدأ الشورى ، ويمنحهم الدور القيادي في نصرة الحق على الباطل .

قال ابو هريرة رضي الله عنه : (ما رأيت أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم) ([3])

([1]) سنن الدارمي ، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي ، ت ٢٥٥هـ ، تحقيق : نبيل هاشم الغمري ، دار البشائر ، بيروت ، ط١ ، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م / ١ : ١٣٦ .

([2])صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله ، ت ٢٥٦هـ ، دار الشعب ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧/ ١ : ١١١ .

([3])صحيح ابن حبان ، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي ، ت ٣٥٤هـ ، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي ، ت ٧٣٩ هـ ،

فما رواه اهل السير قبيل معركة بدر أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم شاور اصحابه لبيان موقفهم ورأيهم عندما أَتَاهُ الْخَبَرُ عَنْ قُرَيْشٍ بِمَسِيرِهِمْ لِيَمْنَعُوا عِيرَهُمْ، فَاسْتَشَارَ النَّاسَ، وَأَخْبَرَهُم عَنْ قُرَيْشٍ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، فَقَالَ وَأَحْسَنُ. ثُمَّ قَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ وَأَحْسَنُ، ثُمَّ قَامَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ فَنَحْنُ مَعَكَ، وَاَللَّهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا، إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ، وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، فو الّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى بِرْكِ الْغِمَادِ (٤) لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ، حَتَّى تَبْلُغَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرًا، وَدَعَا لَهُ بِه . (٥)

إن هذه المشورة كشفت للنبي صلى الله عليه وسلم ، رجاحة عقل أصحابه العدول الثقات الشجعان ، بخلاف قوم نبي الله موسى عليه السلام الذين رأوا أن القتال معه أمر يؤدي بهم الى الهلاك ، فكان رأيهم غير سديد ، ولم يصلح للأخذ به في كل مجال من مجالات الحياة .

وفي معركة أُحد كان رأي النبي صلى الله عليه وسلم أن يتحصن المسلمون في المدينة ، ويقاتلون من خلف الجدران لتحقيق النصر ، وكان رأي اغلب الصحابة الذين طلبوا الشهادة

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م / ١١ : ٢١٧ .

(٤)معجم البلدان ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، ت ٦٢٦هـ ، دار صادر، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٥م./ ١ : ٣٩٩ .

(٥)السيرة النبوية لابن هشام ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين ، ت ٢١٣هـ ، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط٢ ، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥ م / ١: ٦١٤ـ ٦١٥ . وينظر : الدر المنثور ، السيوطي ، ٩١١هـ ، دار الفكر ، ط١ ، ١٩٩٣م/٤ : ٢٦ .

في سبيل الله أمثال النعمان بن مالك رضي الله عنه ، وإياس بن عتيك من بني عبد الأسهل ، وخيثمة أبو سعيد بن خيثمة ، كان رأيهم الخروج الى المشركين وملاقاتهم للنيل منهم ، فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم برأي أصحابه ثم قامت المعركة كما يعلم الجميع .

ولا ننسى رأي سلمان الفارسي رضي الله عنه في معركة الخندق واستحسان النبي صلى الله عليه وسلم لفكرته ، وبالتالي أمر بتنفيذها ، ليكون رأي سلمان سبباً في النصر في تلك الغزوة .

أما في الامور الاجتماعية والاقتصادية ، فكان رأي الصحابة حاضراً في أقرب الأمور ، ومنها أخذه صلى الله عليه وسلم برأي سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة رضي الله عنهما ، في عدم إعطاء ثمار المدينة لغطفان .

وفي الحقيقة لم يكن الصحابة ليعطوا رأياً بقصد مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم متوقفاً على رأي أحد منهم ، فهو وحي يوحى .

إنما كان ذلك إيذاناً منه صلى الله عليه وسلم بأن تكون لأصحابه قاعدة فكرية اجتهادية تؤسس للمرحلة الأولى من مراحل الفكر ، ألا وهي مرحلة نشأة الفكر الإسلامي .

المرحلة الثانية : مرحلة التكوين .

هذه المرحلة جاءت بتراث فكري وتأريخي لآراء الصحابة رضي الله عنهم في حضور النبي صلى الله عليه وسلم ، أعقبت النشأة والتأصيل لانطلاق الفكر والرأي .

في هذه المرحلة انبثق الإشعاع الفكري لأغلب الاتجاهات الفكرية الإسلامية ، وشع نور مدارسها العلمية ، حتى بدت مذاهب الفقه والعقيدة والفكر السلوكي والإصلاحي بدت ظاهرة للعيان .

إن هذه المرحلة اكتسبت الاستقرار النسبي ، حيث لم يعد ما يخفى على المذاهب والمدارس الفكرية الأخرى ، فكل مدرسةٍ ظهرت بحسب صبغتها المعرفية ، وكل اتجاه فكري أو عقدي قد بدا حسب معالمه التاريخية ، وظهر له اتباع ومؤيدون عملوا على تأصيل مصادره المنهجية ، حتى باتت سمات كل مدرسة واضحة جلية.

يقول محمد البهي : (إن كل الاتجاهات الفكرية ومدارس الرأي المختلفة في الفقه والعقيدة والتصوف ، قد وضحت وتميز بعضها عن بعض ، وعرف لها أنصارها وأتباعها ، ورسمت لها خطوط الجدل والنقاش ، وأصول الاستنباط ، ومناهج الشرح والتوفيق إلى غير ذلك مما تتصل بتحديد الفكر في مصادره وأهدافه ، وفي طريق سيره من بدايته الى بلوغ غايته) ([٦])

كانت أهم أسباب هذه الاتجاهات : الحالة السياسية ، والفوضى الاجتماعية ، التي شتتت الأفكار ، وبعثرت الرؤى ، لولا قيام كل فئة بطرح بضاعتها العلمية للوصول إلى أذهان الناس ، والحصول على القبول .

([٦])الفكر الاسلامي في تطوره ، محمد البهي ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨١م/ ٢٩ .

فضلاً عن تأثر الفكر الفلسفي الإسلامي بما قُدِّم الى المجتمع الاسلامي من بلاد الغرب ، كالفلسفات الوثنية والإغريقية ، مما أدى إلى نشوء فكر فلسفي في مواجهة تلك الهجمة .

في حين قام الفقهاء بإنشاء مدارس الرأي والاجتهاد ليؤطروا المجتمع بأطر الحضارة العريقة والثقافة الخالدة ، مما أشار الى التفوق الفكري ، والصدارة والابداع العلمي .

ولو لم تصل الأصالة في الفهم الى تقليد جارف ، لما وقفت حركة البناء الفقهية ، ولما وقعت بعد هذا الوقوف تلك الإنفصالية في حياة المسلم بين سلوك يأخذ مجراه تحت تأثير ظروف الحياة نفسها ، وبين الاسلام الذي تجمدت روافده ، بحيث لم تعد تسير مع السلوك جنباً الى جنب ، أو بحيث لم تعد تمنح الانسان المسلم المساعدة في التوجيه وفي طبع هذا السلوك بطابع إسلامي . [٢]

ومن سلبيات تلك المرحلة :

ما حصل من تعصب للأفكار الدخيلة ، وتشنج في المواقف العقدية والفقهية بسبب الغارات العسكرية التي مزقت شمل المسلمين ، وأطاحت بقوتهم المعنوية ، وفي النهاية وصول المسلمين إلى الضعف والهوان بعكس ما حصل في بداية الأمر من رقي في الأفكار والمواقف ، فكانت نهاية هذه المرحلة مزيداً من الانشقاقات في الصف الاسلامي ، وتدهوراً للأوضاع الاقتصادية ، وضياع للحقوق والواجبات التي أمر الاسلام بصيانتها .

---

[٢] المصدر السابق .